

العمارة الإسلامية في العهد الأموي

UMAYYAD ARCHITECTURE

(41-132 هـ / 661-750 م)

أدى انتقال مركز الخلافة الإسلامية إلى بلاد الشام واتخاذ دمشق عاصمة للدولة الأموية إلى الاحتكاك بالعمارة التي كانت سائدة في هذه المنطقة، حيث ساهم المعمارون والبناءؤون السوريون القدماء بخبراتهم في إعطاء العمارة الرومانية والبيزنطية في المنطقة طابعا مميزا. إن اتساع رقعة الدولة الإسلامية وامتداد نفوذها، جعل الخلفاء يهتمون بالعمارة لإبراز أهمية الدولة الجديدة عن طريق إنشاء مبان مميزة تليق بعظمة الدين الجديد. وقد تركزت أهم الأوابد المعمارية الأموية في بلاد الشام.

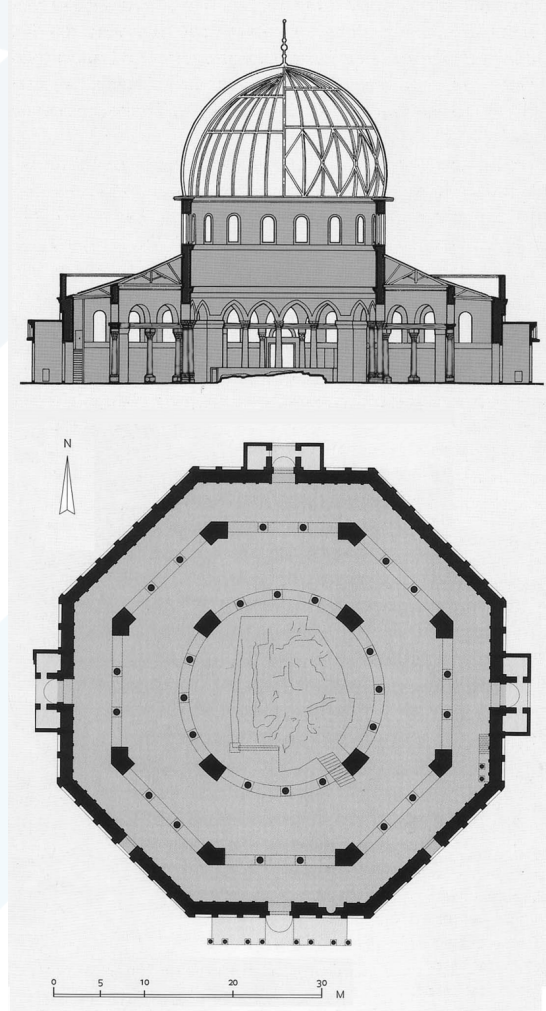
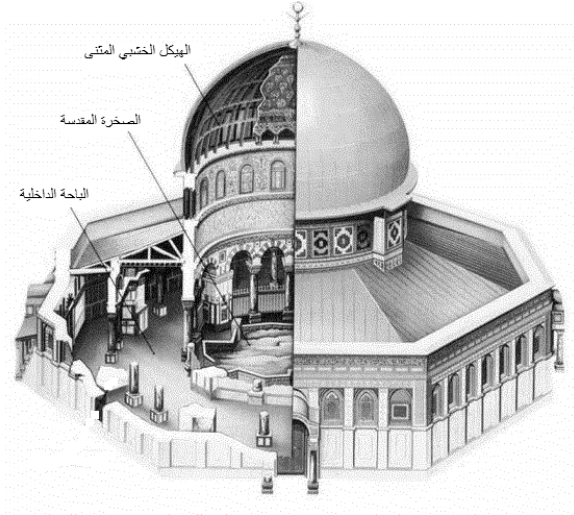
عمارة المساجد في العهد الأموي

1. قبة الصخرة Dome of the Rock

بُنيت قبة الصخرة في القدس في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بين عامي 678-692 م. انتهى البناء عام 72 هـ. قبة الصخرة من المباني الأموية التي لا زالت محافظة إلى اليوم على بنيتها الأصلية، فالتغييرات التي طرأت عليها خلال تاريخها الطويل لم تتجاوز إصلاحات خفيفة تناولت الإكساء الخارجي والعناصر الزخرفية. كانت صخرة المعراج هي المنطلق لهذا البناء وكان الهدف هو العناية بها وإحاطتها بالإطار المعماري المميز. وتم اختيار مبنى ذو تصميم مركزي يتوج بقبة كحل معماري.

المبنى يتخذ شكل مئمن من الخارج طول ضلعه حوالي 20 م وقطره 50 م تقريبا. يليه من الداخل مئمن أصغر طول ضلعه 15,74 م وقطره 40 م ومن ثم تأتي دائرة القبة بقطر 20,40 م التي تحيط بالصخرة (أبعادها 18 × 13 م وترتفع بمقدار 1,5 م عما حولها). ويشكل المئمنان رواقين للطواف حول الصخرة.

دائرة القبة تتألف من أربع دعائم حجرية يتوزع بينها اثنا عشر عمودا، بحيث نجد بين كل دعامين ثلاثة أعمدة تربط بينها أقواس مدببة (تناوب الدعائم والأعمدة مقتبس من العمارة البيزنطية). تعلوها رقبة القبة الأسطوانية الشكل، التي تتخللها 16 نافذة علوية. فوق الرقبة نجد القبة، التي يصل ارتفاعها إلى حوالي 30 م وهي مبنية من طبقتين من الخشب بينهما فراغ. تغطي القبة من الداخل زخارف جصية ملونة، بينما تغلفها من الخارج صفائح الرصاص وفوقها صفائح



قبة الصخرة: مقطع - مسقط - منظور - واجهة جنوبية

النحاس المذهب. جددت القبة مرات عديدة، كان ذلك في عهد صلاح الدين عام 1187 م وفي عهد السلطان المملوكي الناصر محمد عام 1318-1320 م وفي ظل السلطان العثماني محمود الثاني عام 1818 م، كما رمت عام 1964 من قبل الحكومة الأردنية بعد تضررها في حرب عام 1948.

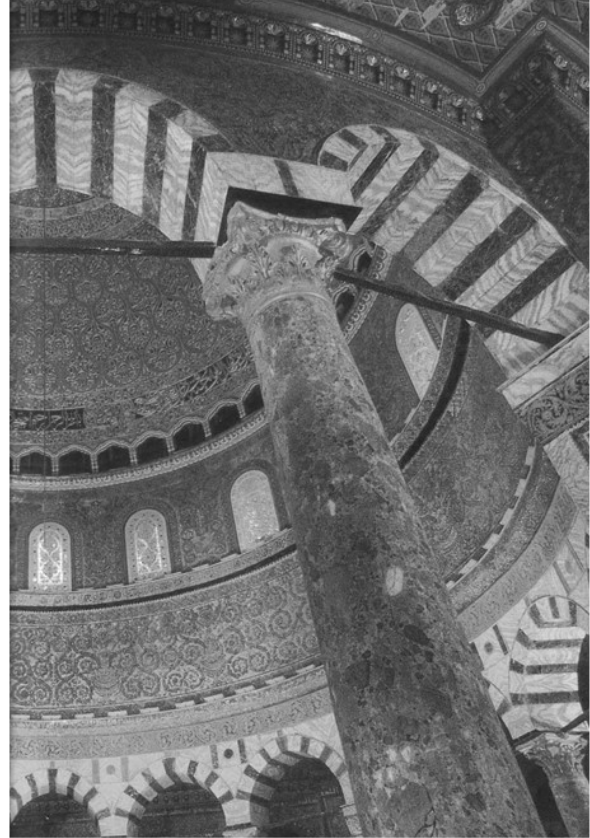
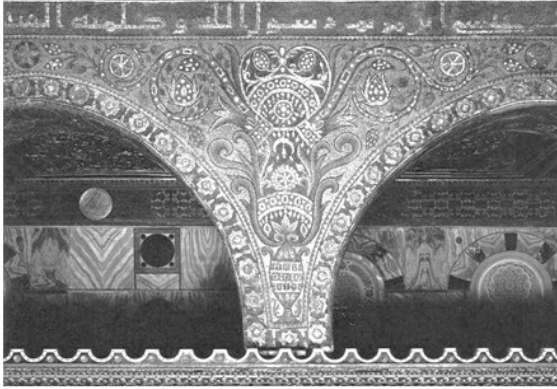
يلي دائرة القبة المثلث الداخلي، وهو يتألف من ثمان دعائم تشكل رؤوس المثلث، يتوزع بينها 16 عموداً، أي أن هناك عمودان بين كل دعامتين يصل فيما بينها 24 قوساً مدبباً. ويتم التدعيم باستخدام جسور خشبية تتوضع فوق التيجان. الرواقان المحيطان بالقبة مسقوفان بسقف خشبي مائل نحو الخارج، وهو مغطى من الخارج بصفائح الرصاص بينما يحجب الهيكل الإنشائي من الداخل بواسطة سقف مستعار مكون من ألواح خشبية مزخرفة تعود إلى الفترتين المملوكية والعثمانية.

أما المئمن الخارجي فيتكون من جدران خارجية ارتفاعها 9,5 م فوقها ما يشبه الستارة أو التصويينة بارتفاع 2,6 م (الارتفاع الكلي 12 م تقريبا). كل جدار من الجدران الثمانية يحتوي من الخارج على 7 تجويفات غائرة تنتهي من الأعلى بأقواس وتضم نوافذا (عدا التجويفين الأخيرين)، هذه النوافذ تنير المبنى إضافة إلى النوافذ الموزعة في رقبة القبة. للمبنى أربعة أبواب مفتوحة بشكل محوري ضمن جدران المئمن الواقعة في الجهات السماوية الأساسية. يتقدم كل باب مظلة. أكبر المظلات تقع أمام الباب الجنوبي، وتقوم على ثمانية أعمدة كورنثية.

العناصر الزخرفية:

قبة الصخرة لا تدهش فقط بنظامها الهندسي المحكم وإنما أيضا بزخارفها المميزة، التي تعتمد على عنصرين أساسيين هما: الرخام والفسيفساء.

الرخام هو مادة بناء الأعمدة والأقواس بألوانه المتناوبة. كما أنها مادة إكساء الجزء السفلي من الدعائم والجدران من الداخل والخارج. الإكساء الرخامي الداخلي لا يزال هو نفسه منذ العهد الأموي، إلا في أجزاء قليلة جددت في الفترة المملوكية والعثمانية.



طريقة تنسيق الرخام معروفة بالرخام المجذع. لأن قطعة الرخام كانت تنشر إلى شريحتين أو أربع ثم يتم تثبيتها بشكل متناظر، وهي طريقة إكساء كانت منتشرة في الفترة البيزنطية. إضافة إلى الأشكال الهندسية، المعروفة بالرخام المشقف، التي تتبع أيضا تقليدا رومانيا وبيزنطيا.

العنصر الزخرفي الثاني هو الفسيفساء. وهي من النوع الذي يستخدم فصوص الزجاج الملون، وبعضها مذهب ومفضض. وقد كانت تغطي الجزء العلوي من الجدران كلها، في الداخل والخارج ورقبة القبة. وهي تمثل مواضيعا نباتية وهندسية متنوعة تمتد على خلفية ذهبية، كما في المباني البيزنطية. ولكن التركيز على المواضيع الزخرفية النباتية والهندسية وتشكيلها بهذه الطريقة تجسيد لأفكار جديدة أتت مع الدين الجديد، الذي يمنع التصوير، ولا سيما ضمن مبنى ديني، فلم يتم الاستغناء عما هو مألوف من زخرفة غنية تدل على أهمية المبنى، لكن تم تغيير الموضوع.

أما من الخارج فقد زالت الفسيفساء واستبدلت الكسوة الخارجية في عهد السلطان سليمان القانوني في عام 652 هـ/1546م، حيث تم تجديد الرخام في القسم السفلي والاستعاضة عن فسيفساء الجزء العلوي بألواح القاشاني. جدت أثناء ذلك النوافذ فأصبحت جصية ويعتقد أنها كانت في الأصل من الرخام كما في الجامع الأموي في دمشق.

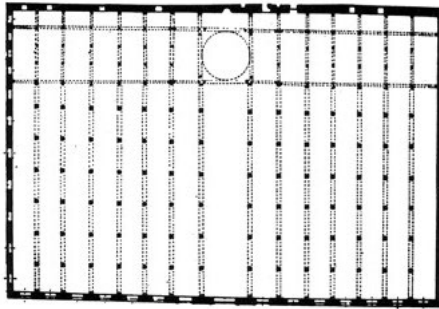
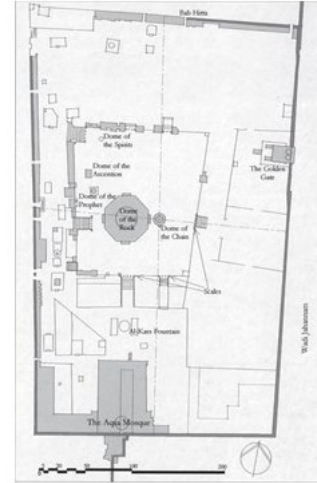
2. المسجد الأقصى al-Aqsa Mosque

يقع المسجد الأقصى في القدس ضمن الحرم الشريف على محور قبة الصخرة وبمحاذاة الجدار الجنوبي للحرم. ويعود اسم هذا المسجد إلى الآية الكريمة: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله..."

المبنى الأموي، الذي يعود أنشئ ما بين 707-709 م في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، تعرض للتهدم نتيجة عدة زلازل وجرى ترميمه في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. وليس لدينا وصف للمبنى الأموي ولكن يعتقد أن الأقصى الأموي لم تندثر آثاره جميعها. ويمكن محاولة تبيان العناصر الأموية في المبنى الراهن.

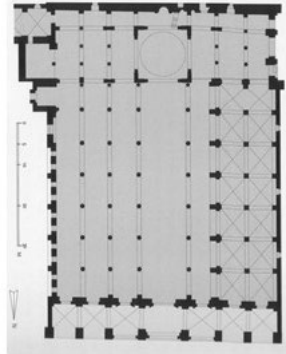
المسجد يتألف اليوم من سبعة مجازات عمودية على جدار القبلة الجنوبي تفصل بينها صفوف من الأعمدة تحمل أقواسا عمودية على جدار القبلة. ويعتقد أن المجاز الأوسط الذي يتميز بكونه أوسع من المجازات الجانبية يعود إلى الفترة الأموية ويمكن أن يكون المجازان اللذان يحفان به أيضا من هذا العهد. ويعتقد أنها كانت في الأصل خمسة أو سبعة مجازات. يتقدم جدار القبلة مجاز معترض وترتفع في نقطة التقائه مع المجاز الأوسط قبة، ليست من أصل المبنى الأموي، الذي يعتقد بأنه كان يحمل سقفا مستويا. يتقدم الواجهة الشمالية اليوم رواق ذو أقواس مدببة، وقد عمد إلى إبراز موقع المدخل برفع الواجهة.

نجد ضمن المجاز الأوسط عناصر زخرفية تشابه ما رأيناه في قبة الصخرة من استخدام الرخام والفسيفساء ذات المواضيع النباتية التي تمتد ضمن سطوح ذهبية في تزيين المبنى من الداخل. ومن المحتمل أن أجزاء منها تعود إلى الأصل الأول الأموي للمبنى.



0 10 20 30 40 50 m

مسقط المسجد العباسي من وضع كريزويل



مسقط الجامع الحالي

المسجد الأقصى: موقع عام للحرم القدسي الشريف - المجاز المركزي - الواجهة الشمالية

تم توسيع الجامع في العهد العباسي مع الاحتفاظ بالأجزاء المذكورة. وقد وضع كريزويل تصورا للمبنى مستعينا بوصف المقدسي. إذ أصبح المسجد يتكون من 15 مجازا عموديا على القبلة، أوسطها هو الأكثر اتساعا وارتفاعا. أي أن المبنى أصبح على شكل قاعة عريضة ضلعها الأطول هو جدار القبلة. ويستدل من وصف المقدسي بأن رواقا كان يتقدم واجهة المدخل، كما هو الحال اليوم. ولكن المبنى العباسي تعرض بدوره للدمار وتغيرت معالمه.

رغم عدم معرفتنا بدقة لتصميم المبنى أيام الأمويين نجد هنا نموذجا جديدا للمساجد متأثرا بالكنائس المسيحية ولكنه يوظف المبنى ليتلاءم مع شعائر الدين الجديد.

3. الجامع الأموي أو الجامع الكبير في دمشق (705-715 م)

Umayyad Mosque of Damascus - The Great Mosque of Damascus

يعد الجامع الأموي في دمشق من أشهر الأوابد التي تعود إلى العهد الأموي والتي لا زالت قائمة ومستخدمة إلى الوقت الحالي. الجامع يتوسط مدينة دمشق القديمة داخل السور ولا يزال إلى اليوم، إلى جانب قلعة دمشق، أكبر مبنى في المدينة.

الجامع يشغل موقعا مميزا ضمن المدينة، فهو يقع في مكان مخصص للعبادة منذ آلاف السنين، فقد أقيم فيه معبد الإله حدد في الفترة الآرامية ثم معبد جوبيتير في العهد الروماني، الذي كان مكونا من حرمين خارجي (Peribolos) وداخلي (Temenos) يحيط بكل منهما سور لا تزال آثارهما قائمة. ثم أنشأ البيزنطيون كنيسة يوحنا المعمدان ضمن الحرم الداخلي للمعبد.

عندما فتح المسلمون دمشق في سنة 14 هـ / 635 م اقتسموا هذا المعبد مع النصارى وأخذوا نصفه الشرقي ليقوموا عليه مسجدهم، الذي عرف بمسجد الصحابة، وتركوا الكنيسة الموجودة في الجهة الغربية، ومن الأخطاء الشائعة الاعتقاد السائد بأن المسلمين اقتسموا الكنيسة نفسها مع النصارى. وقد استمر هذا الحال قرابة 70 عاما، عندما قرر الوليد بن عبد الملك تشييد جامع في هذا الموقع.



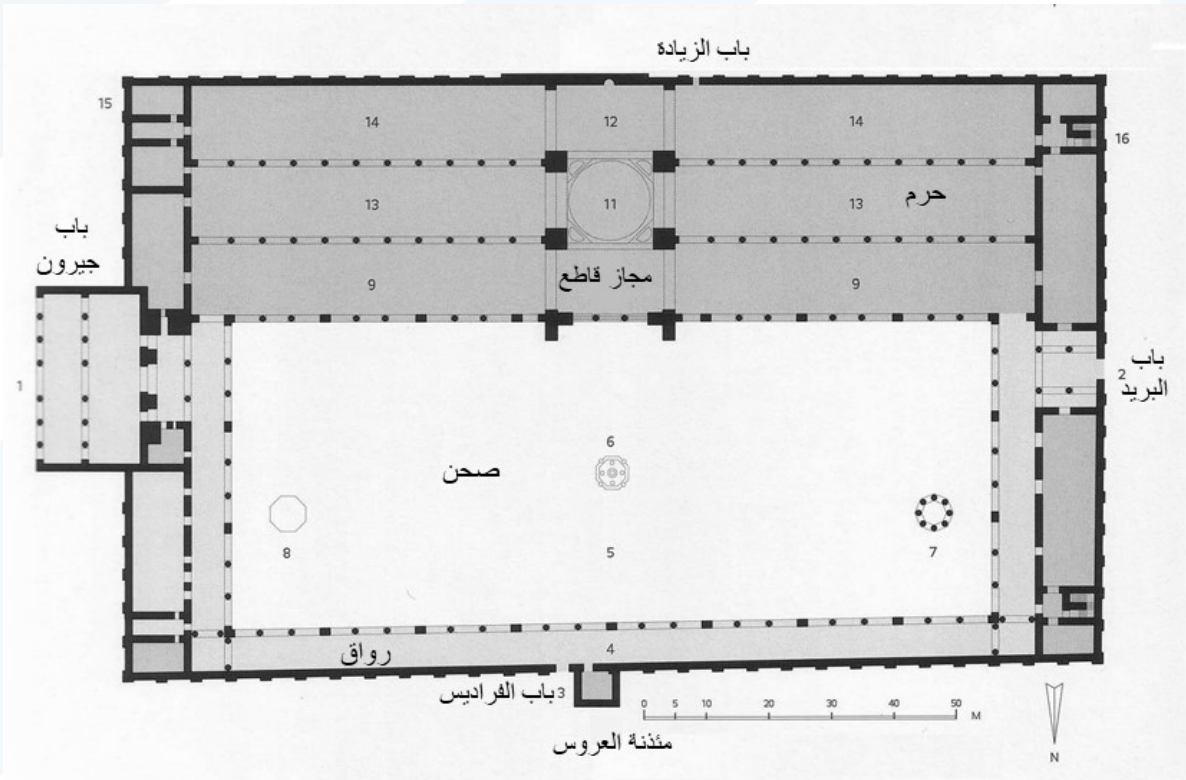
الجامع الأموي في دمشق: صورة جوية من الشمال إلى الجنوب

أمر الوليد بهدم كل المنشآت القائمة في الموقع عدا سور المعبد وقواعد الأبراج الأربعة ليشتيد داخله جامعا وفق تصميم جديد يتلاءم مع شعائر الدين الإسلامي ويليق بعظمة الدولة الجديدة وعاصمتها دمشق. بدأ بناء الجامع عام 86 هـ/705م واستمر عشر سنوات. وما يزال الجامع قائما ومحافظا على بنيته الأصيلية وعلى قسم كبير من عناصره المعمارية والزخرفية رغم ما تعرض له من دمار بسبب الزلازل والحرائق التي كان آخرها عام 1893 م.

مخطط الجامع:

الجامع مستطيل، طوله 156 م وعرضه 97 م. الحرم أو المصلى يشغل الجانب القبلي (الجنوبي)، الذي يحده من الشمال صحن مستطيل محاط بالأروقة من جهاته الثلاثة الأخرى.

يحيط بالجامع جدار خارجي مبني بالحجر الكلسي المنحوت، هو في الأصل سور المعبد الروماني، وقد جددت أقسام منه في العهود الإسلامية المختلفة. كانت تحتل الزوايا الأربع أبراج مربعة يتم الصعود إليها عبر أدراج داخلية. وقد استخدمت للأذان. لا يزال البرجان الجنوبيان قائمان وأقيم فوقهما لاحقا مئذنتان.

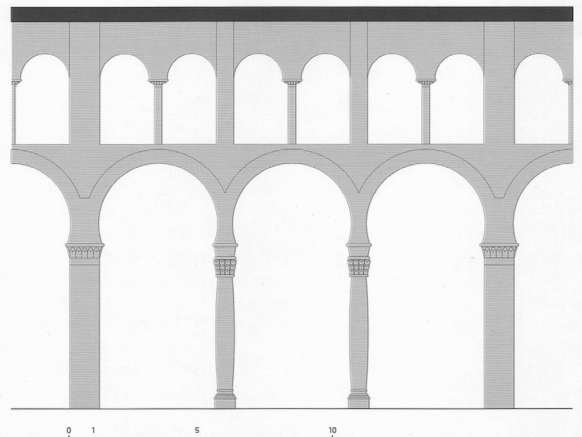


الجامع الأموي في دمشق: مسقط

يتم الدخول إلى الجامع عبر ثلاثة من أبواب المعبد السابق. الباب الغربي معروف بباب البريد والشرقي يدعى باب جيرون والشمالي باب الفراديس وهي تؤدي جميعها إلى الأروقة ومنها يتم الانتقال إلى الصحن. أما باب المعبد الجنوبي، فقد سد ليأخذ المحراب مكانه، ويتم الدخول إلى الحرم مباشرة من جهة الجنوب عبر باب جديد من سوق الصاغة مع وجود باب خاص للخليفة في هذا الجدار يدعى باب الزيادة.

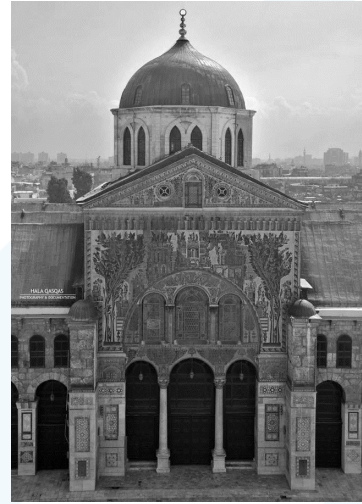
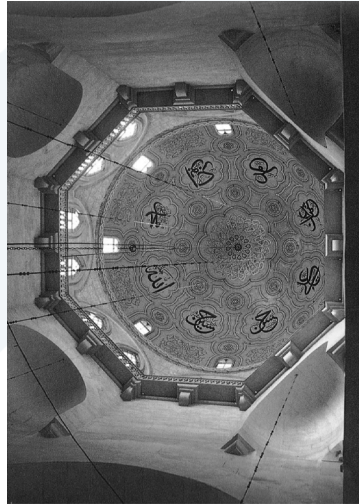
صحن الجامع: وهو المصطلح الذي يطلق على الفناء أو على الباحة التي تتوسط الجامع، مستطيل أبعاده 50×132 م يحيط به من الشرق والغرب والشمال أروقة تفتح على الصحن بأقواس محمولة على دعائم وأعمدة بحيث يتناوب كل عمودين مع دعامة. جسم الأعمدة عبارة عن قطعة واحدة من الحجر الكلسي أو الغرانيت تعلوها تيجان كورنثية، وهي معادة الاستخدام. أما الدعائم فهي مبنية من الحجر. تعلوها أقواس نصف دائرية تستمر قليلاً نحو الأسفل بحيث تشبه الشكل الحدوي. يعلو الأقواس صف آخر من الأقواس الصغيرة. قوسان فوق كل قوس سفلي، يفصل بينهما عمود صغير ذو تاج كورنثي. الرواقان الشرقي والغربي ما زال محافظين على هذا النظام، بينما أعيد بناء الرواق الشمالي في أعقاب زلزال عام 1759م باستخدام الدعائم فقط، التي كسيت بالنقوش الجصية.

تتوزع في الصحن ثلاث قباب. الغربية معروفة بقبة الخزنة (بيت المال). الشرقية تدعى قبة الساعات (العهد الأيوبي). وفي الوسط بركة الوضوء، التي كانت تعلوها قبة تعود إلى العهد العثماني المتأخر (تم تجديدها أثناء أعمال الترميم الأخيرة في التسعينات).



الجامع الأموي في دمشق: الصحن المحاط برواق تتناوب فيه الدعائم والأعمدة وتعلوها أقواس نصف دائرية

حرم الجامع أو المصلى: وهي القاعة المخصصة للصلاة. طول الحرم 136 م وعرضه 37 م. وهو يتألف من ثلاثة مجازات موازية لجدار القبلة (أي للجدار الجنوبي للجامع) يفصل بينها صفان من الأعمدة، التي تحمل أقواسا نصف دائرية، فوقها عدد مضاعف من الأقواس الصغيرة لزيادة ارتفاع السقف. يتكون سقف كل مجاز من هيكل خشبي على شكل جملون وهو مغطى من الخارج بصفائح الرصاص.



الجامع الأموي في دمشق: واجهة المجاز القاطع - القبة - مجازات حرم الصلاة

يتعامد مع هذه المجازات الثلاثة في الوسط مجاز أكثر اتساعا وارتفاعا يسمى المجاز القاطع. يمتد من الصحن إلى المحراب، يغطيه سقف جملوني مرتفع، تتوسطه قبة ارتفاعها 30 م محمولة على دعائم ضخمة. تغير شكل القبة ورقبتها عدة مرات كان آخرها عند إعادة بنائها بعد الحريق الأخير عام 1893 م. في جدار الحرم الجنوبي نجد آثار الباب الروماني القديم، وقد شغل المحراب الفتحة الغربية منه، بينما سدت الوسطى واستخدمت الفتحة الشرقية للربط المباشر مع القصر الأموي المعروف بقصر الخضراء.

أما واجهة المجاز المطلة على الصحن فتمتاز بكونها تنفتح على الصحن بثلاثة أبواب تنتهي بأقواس نصف دائرية. يعلو هذه البوابة جبهة مثلثة على غرار الجبهة المثلثة في المعابد الإغريقية. ويحف بها من الجانبين برجان صغيران تتوجهما قبة صغيرة. وقد كانت واجهة الحرم مماثلة للأروقة من حيث تناوب الدعائم والأعمدة ولكنها عدلت إثر حريق في القرن الحادي عشر الميلادي. تتم إنارة الحرم عبر صفين من النوافذ العلوية.

ولا بد من ذكر ضريح النبي يحيى الموجود في الجانب الشرقي من الحرم، والذي جدد إثر الحريق الأخير على هيئة قبة من الرخام. النبي يحيى هو نفسه يوحنا المعمدان الذي كانت الكنيسة على اسمه والذي يتم تقديسه من قبل النصارى والمسلمين على السواء.

تتوزع في الجانبين الشرقي والغربي للجامع قاعات كبيرة مستطيلة، أطلق عليها اسم المشاهد ونسب كل منها إلى أحد الخلفاء الراشدين. تغيرت أسماؤها مع الزمن وتعددت استخداماتها، حيث استعملت للتدريس والصلاة والاجتماعات وكمكتبة.

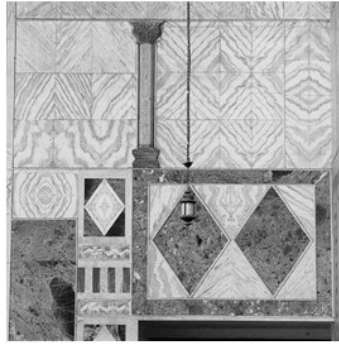
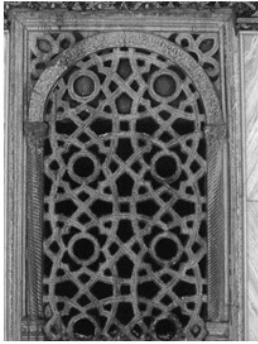
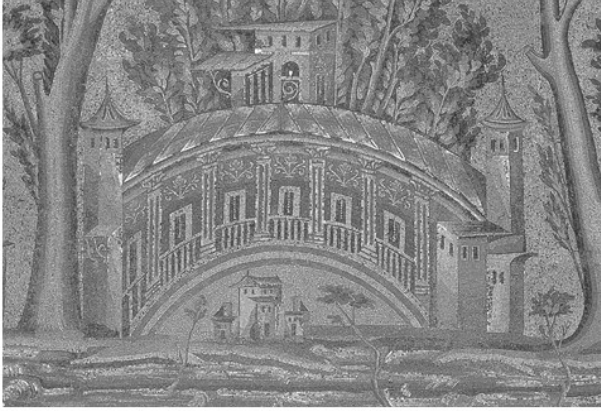
يضم الجامع اليوم ثلاث مآذن. مئذنة العروس وتقع في منتصف الجهة الشمالية إلى جانب باب الفراديس (على محور المحراب). وهي عبارة عن برج مربع، يتوقع أنها تعود في أصولها إلى عهد الوليد بن عبد الملك، ولكن الأجزاء العلوية منها جددت في الفترة العثمانية والقسم الأوسط أيوبي (570 هـ/1174 م). وتدل النصوص التاريخية على أنه كان للجامع في بداياته مئذنة واحدة فقط هي مئذنة العروس.

أما المئذتان الأخرتان فتقومان في الزاويتين الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية للجامع. وهما ترتكزان على قواعد الأبراج الرومانية القديمة. الغربية معروفة بالمئذنة الغربية ويعود بناؤها إلى عهد السلطان المملوكي قايتباي (893 هـ/1488 م). أما المئذنة الشرقية فتدعى مئذنة عيسى وقد جددت هي الأخرى أكثر من مرة، كان آخرها في الفترة العثمانية بعد زلزال عام 1173 هـ/1759 م.

العناصر الزخرفية: تم الاعتماد في زخرفة الجامع وإكسائه على عنصرين أساسيين هما الرخام والفسيفساء. استخدم الرخام في إكساء الجدران والدعائم، بحيث يشكل الرخام حلقة ارتفاعها تقريبا 4 م. الرخام كان من النوع المجذع. ولكن زال معظمه من الجامع بسبب الحرائق والزلازل ووجدت بنماذج مختلفة أثناء الترميم الأخير.

أما الفسيفساء فكانت تغطي ما تبقى من المسافة بين نهاية الرخام وصولا إلى السقف. وكانت تكسو الدعائم والأقواس. يغلب استخدام فسفوس الزجاج الملون وبعضها مذهب ومفضض مع نسبة قليلة من الرخام الملون والصدف. وقد زالت كل فسيفساء الحرم بسبب الحرائق، وكذلك في الصحن. فلم يبق إلا جزء يسير تم استكماله بالترميم خلال القرن العشرين. والفسيفساء الموجودة في الرواق الغربي هي الأكثر حفاظا على أصالتها. لوحات الفسيفساء تمثل خمائل الشجر الكثيف، التي يتخللها مشاهد معمارية لقصور ومبان تجري من تحتها الأنهار، أي أن هذه اللوحات ترمز إلى الجنة التي وعد بها المؤمنون وربما تعبر عن دمشق كجنة على الأرض. وهنا نجد اختلافا عن الفسيفساء في قبة الصخرة والمسجد الأقصى بالتحول إلى مواضيع إسلامية واضحة.

ومن العناصر الزخرفية اللافتة للنظر النوافذ التي كانت في الأصل من الرخام المشبك بأشكال هندسية متقنة، لكن لم يبق منها إلا ستة نماذج في المشهدين الغربيين، أما الباقي فقد استبدل بشبابيك من الجص المعشق بالزجاج الملون.



الجامع الأموي في دمشق: منذنة العروس - لوحة فسيفساء - الرخام المجذع - نوافذ الرخام المشبك

نلاحظ التأثير المباشر للجامع الأموي في دمشق بالمسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة من حيث استخدام وتوزيع العناصر المعمارية التالية:

- الشكل الخارجي المستطيل.
- الصحن الواسع، الذي يحتل الجهة الشمالية من الجامع.
- حرم الصلاة الذي يمتد إلى الجنوب من الصحن بشكل مستطيل ضلعه الطويل مواز لجدار القبلة، تتوزع ضمن الحرم صفوف من الأعمدة.
- المسجد محاط بجدار خارجي مغلق تتوزع الأبواب في منتصف الجدران الخارجية للجامع المطللة على الصحن (الشمال والغربي والشرقي).
- الصفة التي تعد بداية للأروقة المحيطة بالصحن.